

البعد الاجتماعي في مدونة عبد الحميد بن هدوقة

أ/ شنان قويدر
جامعة المسيلة

أولا : تصور طبيعة الموضوع وتقديم المنهج

يعرف المجتمع الجزائري المعاصر كغيره من المجتمعات الإنسانية تقجر العديد من التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية المتسارعة وهو واقع أدى إلى طرح سيل هام من التساؤلات نتيجة هذه التحولات وبفعل تأثيراتها وآثارها من قبل النخب الثقافية والاجتماعية والسياسية الفاعلة على مسرح الشأن العام بهدف التحليل أو محاولة الفهم والتفسير والنقد أحيانا وفي الأغلب الأعم يكون الهدف هو التموقع والبحث عن مكانة ودور ، أو ربما لتبرير المواقع والمصالح والتوجهات والرهانات ، أو لعله بهدف التحكم في مجرى الأحداث وتوجيهها.

من هنا تصبح الجزائر في راهنتها جزائر التحولات على مختلف الصعد ومن ثمة جزائر التساؤلات المتعددة الأبعاد والمضامين والدلالات ، شانه في ذلك شأن الواقع الاجتماعي المعني في تعقد وتشعب مكوناته ومجالاته وأبعاده الفكرية والسياسية والحضارية والسوسيو تاريخية المتعاقبة . فإذا استحضرننا في لحظتنا خصوصية الزمن وما يفرضه على مجتمعنا من تحديات ورهانات وتموضعات، وإذا كان مجتمعنا يشهد في عقوده الأخيرة عدد لا يستهان به من التحولات والمخاضات والمشكلات المختلفة الأنماط والمجالات والمستويات ، كما يعرف الكثير من محاولات وتجارب الإصلاح والتجديد والتطوير ، وإذا كان لهذه التغيرات على مستوى خلفياتها السوسيو تاريخية والثقافية جذور تشكل وسيقا تطور وراهنية متعددة الأبعاد والمدلولات والمظاهر والمستتبعات والامتدادات فما هو دور المثقف في رصد هذه اللحظات ؟ وهل استطاع الإبداع أن يصور رهن الواقع الحقيقي ؟ وان صورته ففي أي مستوى من مستويات القيم الرمزية ؟

يجسد الفن الروائي شخوصه وأحداثه عن طريق تسييقها لغة . ولذلك فالسياق يلعب دورا مهما في توظيف اللغة للتعبير عن المجال الفكري للمتخاطبين وقد تبرز لنا هذه البنية الاجتماعية داخل النص الروائي بصورة أجلى من كون النص يقوم على أساس

القصة لما يحويه من شخصيات وأحداث وفضاءات وأزمنة تكون لها مرجعيتها في الواقع المباشر أحيانا كثيرة. ورغم البعد التخيلي المفضي على عالم القصة فإن نص الرواية يظل تجسيدا لأفعال وعلاقات وقيم اجتماعية وتاريخية محددة. يتم تقديم هذا التجسيد من خلال بناء له استقلاله الذاتي عن هذه البنية الاجتماعية من جهة وضمنها من خلال فعل الكتابة من جهة ثانية (1)

تلعب الشخصيات الروائية دورا كبيرا في تجسيد وتشخيص الوقائع الاجتماعية كما تكون الأحداث والأزمنة أطرا لحركات هذه الرموز. وابن هدوقة سعى من خلال مدونته بين 1970 إلى نهاية 1989 رسم صورة فنية جمالية لواقع المجتمع الجزائري ضمن محيط اجتماعي ونفسي عبر تفاعلات داخلية وخارجية فوق برموزه المجتمعية إبان حرب التحرير وإبان الاستقلال وهي رموز تشير إلى واقع الجزائر راهنيا وتاريخيا. رغبة منه في اكتمال الصورة بشكل طبيعي للجزائر المعاصرة. وابن هدوقة جعل من هذه الشخصيات نصا مفتوحا على عدة تأويلات بحسب مستويات القراءة فقد كان حريصا على تسجيل ما يحدث في الجزائر ومسيرتها التنموية. ومن هنا فالنص بنية دلالية تنتجها ذات فردية أو اجتماعية ضمن بنية نصية منتجة وفي إطار بنيات ثقافية واجتماعية (2).

والإرث الإبداعي ضخم ومتنوع للغاية، وبهنا أن ابن هدوقة أسهم إسهاما كبيرا في تطوير مختلف الأجناس الأدبية إلا أن ما جلب له الشهرة بالدرجة الأولى هو رواية "ريح الجنوب" التي نشرت في 1971م وتركت أثرا أدبيا عميقا ولعل تفسير نجاح هذه الرواية يكمن في جودة هذا العمل الفني وفي استجاباته لحاجات القارئ الجزائري في ظروفه تلك. باعتبار الرواية تتناول التغيرات الجذرية في حياة الوطن منذ انتزاع الاستقلال وعزيمة أبنائه على بناء مجتمع جديد خال من الاستغلال، ففي الفترة الممتدة بين سنتي 1966-1969م وقعت تغيرات كبيرة على المستوى السياسي ممثلا في ملكية الدولة للمناجم وشركات التامين والكثير من البنوك والصناعة التي كانت قبل هذه الفترة تحت رقابة خارجية والى جانب ذلك احتكار الدولة للتجارة الخارجية، كما تم تأمين المحروقات في فيفري 1971م إضافة إلى سن قانون التسيير الاشتراكي للمؤسسات واتخذت إجراءات لتحسين وضع الفرد الجزائري، هذا من الناحية السياسية والاقتصادية وبعد الاهتمام بالمدينة تحول الاهتمام بالريف من خلال ميثاق الثورة الزراعية سنة

1970م الذي هدف إلى منح الأراضي للفلاحين وخلق شبكة من التعاونيات وفي نوفمبر 1971م صودق على قانون الثورة الزراعية ونتج عنه "القرى الاشتراكية" إن أحداث هذه التغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية أدى إلى إعادة تحديد مواقع القوى ونشأت صراعات فظهرت رواية "ريح الجنوب" سنة 1971م لتعكس الصراع الطبقي في الريف الجزائري، ومن خلال هذه الرواية صور المؤلف واقع الجزائر في صراعاتها ورسم صوراً حية للغاية لأطراف الصراع، تجرى أحداث الرواية في إحدى القرى في منتصف الستينات وأبطالها هم، مالك شيخ البلدية المجاهد ونقيضه عابد بلقاضي مالك الأرض الغني والخائن الذي استعمل كل قواه للحفاظ على ثروته ومركزه، مخافة مصادرة أملاكه ومن أجل الحفاظ على أملاكه يحاول هذا الإقطاعي مصاهرته ويزوجه ابنته الطالبة نفيسة التي قدمت من العاصمة لقضاء عطلتها في القرية وهذه الفتاة المدللة المتعودة على حياة المدينة تجذبها حياة القرية بتقاليد العتيقة التي تحكم على المرأة بالانزواء ويعجب مالك بنفيسة وهي تذكره بخبيبته زوليخة أختها الكبرى التي استشهدت أثناء الثورة غير أنه لا يفشي مكنونات نفسه ولا يؤمن في سلامة نية بلقاضي وكان أهم شيء بالنسبة لمالك هو خير الشعب وانتصار قضية الثورة التي كرس لها حياته، ومن هنا فهو يعتقد اعتقاداً جازماً أن الثورة لن تنتهي ما دام هناك رجعيين ملطخين بدماء الأبرياء قاصداً بذلك بلقاضي وأمثاله.

وتتطبع في ذاكرتنا شخصيات أخرى في الرواية مثل الراعي الشاب رابح اليانس في حبه لنفيسة وصاحب المقهى قويدر والمعلم الطاهر وقد نجح الراوي بصفة خاصة في رسم ملامح الصورة الشعبية العميقة للعجوز رحمة الماهرة في الخزف وهي أيضاً ذاكرة حافظة للتقاليد القروية تحلم بصنع قلة تجسد كل جمال العالم، كما صور بصدق الناحية النفسية للفلاحين البسطاء الذين لزموا موقفاً حذراً من الثورة الزراعية المقبلة مخافة أن تحرمهم من أهم ثروة يملكونها هي الأرض كما صور صوراً ساخرة لأدعياء العلم من شيوخ ودرأويش يعيشون متطفلين على جهل المجتمع البسيط.

ومن هنا فالرواية كانت استجابة أنية لأدب واقعي مكافح وعلى هذا الأساس كان من حق نفيسة رمز الجزائر أن تتطلع إلى تنمية داخلية وخارجية وعليها أن تتغير من ريف المدينة وهذا حل لها، فالمدينة محكومة بعلاقات اجتماعية مغايرة عادلة ومطوعة تحقق لها وجوداً مختلفاً ونوعياً وقد صورت نفيسة في الرواية رهينة وضع اجتماعي متخلف

لأنها لم تدرك العلاقات الاجتماعية إدراكا تاما وجيدا يعتمد على التفكير الواعي للأسس والعلاقات، بمعنى لتتغير الجزائر عليها ببناء وعي لدى أفرادها بشكل يتناسب وما تطمح إليه .

بعد رواية ريح الجنوب نشر ابن هدوقة رواية "نهاية الأمس" 1975م وتجري أحداث هذه الرواية في قرية نائية غداة انتهاء حرب التحرير الوطني وبطلها معلم من المدينة يأتي إلى قرية خربتها الحرب من أجل مساعدة الفلاحين على بناء حياة جديدة وخلافا لأسلافه الذين نزحوا نحو المدينة خوفا من المصاعب ، يستقر في هذه القرية ورغم أن هذه الرواية كتبت بشكل جيد وتطرح مثل رواية "ريح الجنوب" مشاكل اجتماعية حادة إلا أنها لم تلق نفس النجاح الذي عرفته الرواية الأولى ، ولعل تفسير ذلك يعود إلى صدور مؤلفات غير قليلة مخصصة لمشاكل القرية صادفت نشر هذه الرواية ومع ذلك فإن نهاية الأمس حاز بها ابن هدوقة لقب الكاتب القروي .

وشخص هذه الرواية يقدمها ابن هدوقة في صورة تجمع بين السلبية والإيجابية ومن هنا وضع الجزائر ضحية الفعل الاستعماري الذي حاول أن يستلب كل معاني الإنسانية من الفرد الجزائري ، وهي رمز بعد ذلك إلى بشاعة الاستعمار وهمجيته وإدانته لوجوده ، والمزاوجة في الرواية بين ميراث الشهداء وكيف اقتتصه الخونة من الحركة" تزوج الحركي بزوجة البشير المجاهد " واستطاع الروائي أن يمزج بين رقية والجزائر ومن خلال ذلك انتصر للحس الوطني بكشفه عن الموقف العدائي لأبناء القرية من الحركي ومن أسرته برجمه حتى الموت ، ولكنهم فرضوا الحصار والعزلة على الأسرة بما فيها رقية وفي النقاء رقية بالبشير المجاهد هو النقاء بطموح الثوار ومآل الوضع في الجزائر فالرابط بينهما هو الابنة المتوفاة ، وهنا رمز الموت الحرية التي نوزل من أجلها وقد يكون الكاتب قد قصد ذلك .

ثم رواية "بان الصبح" المنشورة سنة 1980م أدهشت القراء بتناولها لألف مشكلة ومشكلة لعاصمة البلاد وأحداثها تجري في العاصمة 1976م أثناء النقاشات الحادة حول وثيقة مشروع الميثاق الوطني كوثيقة هامة للثورة الجزائرية التي حددت طريق التطور اللاراسمالي للبلاد ، وأرست أساس دستور الجمهورية الجزائرية ، ويتمحور هذا العمل الفني حول أسرة علاوة الكبيرة التي يحمل أفرادها قناعات سياسية مختلفة من محافظة

متطرفة إلى ديمقراطية ثورية ومن خلال بنية هذه الأسرة الجزئية عكس ابن هذوقة البنية الكلية للمجتمع الجزائري .

رب هذه الأسرة الشيخ علاوة موظف سام في إحدى الوزارات متعصب ديني يرفض الميثاق الوطني لأنه لا يتماشى وتعاليم الدين الإسلامي ولا مع عادات وتقاليد المجتمع الجزائري من وجهة نظره . وكان يسمى الاجتماعات المخصصة لمناقشة الميثاق "اجتماع أعداء الله" فهو مغرور بنفسه للغاية ويطمح دوماً إلى أن يبدو عكس ما هو عليه في الواقع وهو "برجوازي صغير وسط النبلاء" على الطريقة الجزائرية ، ويدعوه أولاده بسخرية جنرالاً أما زوجته كلثوم فهي ند له وامرأة محدودة الأفق للغاية . ويعيش مع علاوة أولاده الراشدون ، عمر وهو أكبرهم متزوج ومدير مؤسسة كبرى تابعة للدولة حديث النعمة ومستتهتر ، جمع أموالاً طائلة عن طريق المضاربة ويدوس بوقاحة حقوق العمال ، وهو محبوب الشيخ علاوة ويشاطره أداءه .

والابن الوسط مراد وهو طبيب جراح درس في فرنسا يقف بآرائه موقفاً وسطاً بين أبيه وأخيه الأكبر عمر من جهة وبين بقية أفراد الأسرة من جهة أخرى . أما الابن الأصغر رضا فهو طالب متحمس لأفكار الثورة الاجتماعية ، وأفكاره متعارضة تماماً مع أفكار أبيه وتشاطره قناعته أخته دليلة الطالبة في الحقوق ، أن دليلة هي المع شخصية في الرواية ذات طبع بارز وناضج إنها فتاة "محشوة بأفكار ناسفة" تمارس رياضة الكراتي وتمتاز عن بقية أبطال الرواية بعدم امتثاليتها للمحاربة ، وتعيش في نفس البيت ابنة أخيه نعيمة التي استشهد أبوها أثناء حرب التحرير وقد قدمت إلى العاصمة للدراسة في الجامعة وهي فتاة لطيفة وساذجة نوعاً ما ، يبدو لها كل شيء في العاصمة جديداً ومدحشاً لكن عيونها انفتحت على أشياء كثيرة بفضل صداقتها برضا ومشاركتها في اجتماعات مناقشة الميثاق الوطني ومن بين الشخصيات الأخرى في الرواية نتذكر صديقة دليلة ، ابنة العامل نصيرة التي تكنى بسوناكوم "وهي شركة وطنية لإنتاج الجرارات ، ونصيرة نموذج جديد للفتاة الجزائرية المتحررة .

والى جانب الأبطال الرئيسيين نجد في الرواية شخصاً ثانوية كثيرة تمثل مختلف شرائح المجتمع الجزائري ابتداءً من ارسطوقراطية العاصمة وانتهاءً بالعمال البسطاء . لقد كتبت هذه الرواية لتصف التناقضات بين أفراد العائلة والتي كانت مخفية إلى حين في تمرد معلن للأبناء الصغار ضد الأب المستبد الغبي الذي يدعمه الابن الأكبر عمر .

وحين يصور الروائي حياة أسرة علاوة يلج بالفقار إلى صميم حياة المجتمع الجزائري المعاصر الذي يمر بمرحلة تطور انتقالية ومضطربة حسب آراء الجزائريين أنفسهم ، ويبرز الكفاح الاجتماعي الحاد الذي قسم هذا المجتمع إلى شقين متعارضين أنصار القديم المتمسكين بالتعاليم الدينية وإتباع الجديد المكافحين من أجل جزائر علمانية ديمقراطية حقة . ومن خلال هذه الرواية استطاع ابن هدوقة أن يخلق عمل أدبي وطني عميق في واقعيته يعكس الحياة الحديثة للمجتمع الجزائري، ويمكن أن نرى إن شخوص هذه الرواية جاءت لترسم في المدينة لتكون معادلا موضوعيا ل"رياح الجنوب ونهاية الأمس" وفي الوقت نفسه امتدادا لها فالجزائر ممثلة برمز دليلة أكثر نضوجا وتطورا ووعيا من نفيسة المستغلة في إطار علاقات ريفية تنظر إلى المرأة نظرة خاصة. و الجزائر في هذه المرحلة تمارس فيها أشكالاً من الاستغلال بطرق مختلفة شكلاً ومضموناً.

وفي سنة 1983م نشر رواية "الجازية والدرابيش"، وهي عمل فني غير عادي يشمل سمات الرواية السياسية المعاصرة والأسطورة الشعبية القديمة ، بين السرد الواقعي والقصيدة النثرية الرمزية . بين الواقع والأسطورة . وهي جديدة شكلاً ومضموناً . وتجري أحداث الرواية في قرية نائية "ضائعة في الجبال والأزمنة" والبطلة الرئيسية للرواية هي الفتاة الخارقة للعادة الجازية بنت المجاهد البطل في الحرب التحريرية الذي قتل من ألف بندقية ودفن في مناقير الطيور ، ويبدو أن اسم الجازية مستوحى من الأساطير الملحمية عن جازية قبيلة بني هلال ، وهي حسناء فاتنة دفن شعرها كما تقول الخرافة في أماكن خفية بالجبال ، ترتبط طموحات وأمال كل أبطال الرواية تقريبا بطريقة أو بأخرى بالجازية الحسنة ، فكلهم يخطبون ودها وعطفها ومن بين الساعين لكسب الجازية شاب متعلم وابن فلاح محلي اسمه الطيب والعيد العائد من الغربية إلى قريته الأصلية وشيخ القرية ذو الماضي الغامض الذي كان يحلم بتزويج نجله الذي يدرس في أمريكا بالجازية والطالب الأحمر الفاتن الشجاع والحالم الذي قدم القرية متطوعاً لمساعدة الفلاحين ورعاة القرية البسطاء ، ولكنهم يخفقون، فالطالب الأحمر يضيع في الجبال بطريقة غامضة ومحيرة ويقع شيخ القرية في هاوية ، ويكاد العيد يهلك ويدخل الطيب السجن بتهمة ملفقة وبعد هذه الهزات تعود الحياة في القرية إلى مجراها الطبيعي وتجري كما جرت منذ قرون تحيط بها هالة من قداسة التقاليد والعادات القديمة .

ويتصور النقاد القراء أن الجازية في الرواية ترمز إلى الوطن إلى الجزائر ويمثل العمل الفني هنا عن كون الجزائريين يحبون بلادهم بطرق مختلفة بصرف النظر عن أهداف كل واحد منهم، وهناك فكرة هامة في الرواية وهي انه لا ينبغي استئصال الشعب عن جذوره وعن قيمه المتوارثة عبر الأجيال و لا يجب أن نفرض عليه خيارا ما بطريقة اصطناعية ومن لا يأخذ هذا بعين الاعتبار يصاب بالفشل مهما كان نبيل الأهداف أو خبثها.

فامتزاج الجازية بالجزائر جعلها مطمعا لكل الدراويش الطامحين في الظفر بها كل بحسب توجهه الفكري ونظرتة إلى الحياة ، ولكن الجزائر حافظت إلى استقلالها وبناء شخصيتها بعيدا عن تلك المغريات واللحون واختارت أن تبقى سامقة الهامة عالية الرأس وارتبطت بالصفصاف رمز السمو والعلو والارتقاء ورمز التماسك والتجذر والثبات واليقين .

أما رواية "غدا يوم جديدة" فقد اعتمد فيها الروائي على تقنية الاسترداد فلم تعتمد اللحظة الدرامية المعينة ، فالأحداث فيها أنية قريبة وحاضرة فاعلة تحيلنا إلى الماضي وشخص الرواية تفكر بأصوات عالية ومرتفعة ورمز المرأة فيه كرمز للوطن ترتد إلى ماضي بألية السرد "ابني الشهيد أبوه قدور هو الوحيد الذي اعرف أباه" مما يعني أن الصراعات التي عرفتها الجزائر في هذه المرحلة توزعت بين تيارات مختلفة إيديولوجيا . ومن هنا فالجزائر الوطن تحفظ للشهداء و المجاهدين حق السلطة بمعنى سلطة الشرعية التاريخية ولا شرعية لغيرها . إن الجزائر ممثلة في رمز هذه المرأة الأنثى التي تحمل مواصفات الإبهار والدهشة والإعجاب وتصبح المرأة النموذج الذي بحث عنه الروائي في أعماله السابقة

إنها الجزائر الوطن في مسيرتها التاريخية فهذه المرأة لا تريد ولا ترغب في العودة إلى الريف إلى الدشرة "وقد تزوجت بهذا الرجل الذي يعمل بالمدينة إنها لن تتزوج الرجل تزوجت المدينة" (3).

وعلى هذا ما زال الاعتقاد في المدينة وما زالت الجزائر ترى في المدينة خلاصها وجلاء همومها والواقع أن القضية ليست قضية مكان بل إنها قضية علاقات وأنماط معيشية فقد نعيش في المدينة بعقلية البدوي وقد نريف المدن. والمكان له دور أساسي في الرواية "لو سألتني أين تحيا؟ أقول في المدينة والرأس ما زال قرويا والقرية اندثرت ولو

سألتني وما جنت به عليك المدينة؟ أقول لها: اعتدت على شرف طفولتي كما اعتدت على شرف شبابك القروي" (4).

إذن القضية قضية نمط تفكير ونظام معيشي ولهذا سعى إلى رسم حدود الشخصية الرئيسية في نصه بتقنية فنية تتيح للشخصية أن تعبر عن نفسها وتكشف عن جوهرها بأحاديثها وتصرفاتها الخاصة وقد يعمد إلى توضيح بعض تصرفاتها عن طريق أحاديث الشخصيات الأخرى عنها وتعليقاتها على أعمالها.

الهوامش:

- 1- ينظر: سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي " النص والسياق" المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1/ ص: 140.
- 2- السابق، ص: 32.
- 3- ابن هذوقة: غدا يوم جديد، ص: 24.
- 4- السابق، ص: 165.